"إحباط الطفل".. نحن المسؤولون!

لوسي عيسى

إن الطفل يتعامل مع مُحيطه في السنين الأولى بناءً على غريزته وإشباعاً لحاجاته والتي هي أساسية في عملية نموهِ العقلي والنفسي والاجتماعي وتكون قدرةُ الطفل على فك الرموز المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية وخاصة بالمحيط ضمن علاقته بأبويه أو حتى بمعلمه وأصدقائه بآلية الردود الفطرية البدائية، ومن خلال التأثيرات الكاملة للبيئة التي يتم تعلمها عبر سلسلة من المعطيات والتي تبدأ بالاكتساب والتعلم وتنتهي بالإشباع أو أحياناً بالإحباط.

ليس لدى الطفل أدنى شك بأنَ ما يحتاجهُ لا يؤجل خاصة إذا كان الأمر متعلق بحاجة فيزيولوجية أو حاجة نفسية كالأمان والحب مثلاً أو اجتماعية كاللعب مع الآخرين بالدرجة الأولى، ومن ثم نسأل أنفسنا إن كنا قد راعينا هذه الآلية التي تشبه (قول الطفل أريد وربما تكون ردة الفعل متمثلة بمسموح أو غير مسموح أو ربما لا يحق لك على حسب ما تصرفه الطفل).

فبعض الآباءِ يستخدمونَ أو يستغلونَ هذه الآلية كمصدر لتعديلِ سلوكِ أبنائِهم فتنمي عند الطفل فكرة أن أفعل بداية شيئاً حسناً ومن ثم يكون لي الحق بأخذ ما هو حقي بالأصل وتركيز الطفل طبعاً يكون على أخذ ما يريد لا على الفعل الجيد الذي لن يهمه في هذه الحالة، بالإضافة إلى أن ما يفكر به الطفل هو (إن من الطبيعي أن يكون لي الحق بفعل هذا أو اخذ ذاك فلماذا يتم رفض طلبي أو تأجيله).

ومن دون أن نشرح للطفل أو نهيأه للصد أو الرفض تبدأ معاناة الطفل في فهم ما يحدث ولا ننسى عجزه عن تفسير كل هذه الردود التي لا يضعها إلا ضمن منظومته اللاواعية التي تشبه (الضرب أو الصراخ أو حتى العقاب بأشكاله ستجعلني بداية أبكي ثم أقلق ومن ثم أخاف ولكني فعلاً" لا أفهم لماذا؟) ونظن أحياناً أنه برأينا من المفيد أن تكون ردة فعل الطفل بهذا الشكل حتى لا يعيد ما فعله أو حتى من أجل أن يتعلم السلوك المثالي عن طريق الألم بأشكاله).و يغيب عن بالنا أن ما يحدث داخل عقل الطفل يشبه الموتُ السريع للفكرة أو الموقف التي أردنا ترسيخها وما يتم فقط اكتسابه النتيجة المؤلمة ألا وهي الخوف والقلق والحزن.. على اعتبار إن الطفل لا يستطيع تفسير المواقف بشكلها المنطقي والعقلاني أو أن يقيم معادلة منطقية لتحليل الموقف وفي النهاية إصدار نتيجة يستطيع بقرارٍ شخصي أن يتبعها ضمن ما يعرف بالإرادة الواعية .

فالنتيجة إذاً واضحة (عدم إشباع متمثل بردودِ أفعالٍ قاسية يؤدي للإحباط والإحباط المتكرر يخلقُ قلقاً وحزناً وهذه المشاعر المتراكمة تنتج إنساناً غير متوازن وتخلق مشكلات سلوكية ونفسية منها العدوان الكذب أو المراوغة لنيل ما لم يستطع أخذه مسبقاً أو استرجاعه.. إلخ).

إن ما نغذيهِ داخل الطفل قد يكون من الحساسية لدرجة عالية تتطلب دقة وأحياناً ثباتاً في المواقف، الازدواجية في الاكتساب بين ما يعامل به الطفل بين البيت والمدرسة أو حتى بين الأبوين أنفسهم تجعل الطفل مشتت في مواقفه ولا يعرف التصرف السليم ضمن هذه المواقف فالخيارات أمامه عديدة والأشخاص كثر فهل يا ترى سيقلد من أحبه أكثر أو من يخافه أكثر؟ أو من يعطيه الحلوى أكثر؟ يبقى الخيار طبعاً للطفل .

عالم الطفل عالمٌ واضح، عالمٌ ذكي، يحمل الكثير من الإشارات التي من خلالها يستطيع الطفل التواصل مع الآخرين فيفهم بسهولة لغة الجسد بما تحويه من تعبيرات صريحة عما نشعر به اتجاهه فهذه القدرة التي يمتلكها تجعله أكثر حساسية اتجاه ما نظهره له ومرهونة بتقرب الطفل منا أو نفوره وهذا بدوره مرهون وقدرتنا على فهم أسباب أفعاله وهذا ما لا نجهد أنفسنا لمعرفته وعلى اعتبار أننا نملك أسلوبين للتعامل معه وهما كافيين"الحب أو الرفض."

ماذا لو استطعنا أن نرى لمرة واحدة ضمن ما يراه الطفل وليس ما نراه نحن.!

موقع نساء سوريا

النظام الداخلي للأسرة

صفاء ديوب – موقع نساء سوريا

الأسرة نظام حيوي يشعر ولا يفكر. جميع تغيراته قائمة على مبدأ التوازن الحيوي ,شأنه في ذلك شأن الخلية التي تحافظ على نسب محددة من مكوناتها بهدف الاستمرار، فإذا زادت نسبة الأملاح داخلها تعمل على التخلص من بعض شوارد الصوديوم، وإذا قلت تفتح النوافذ على الوسط المحيط لاستقبال شوارد جديدة..كذلك الأمر بالنسبة للأسرة فهي تخضع لقواعد وقوانين تنظم علاقات أفرادها مع المحيط وعلاقاتهم مع بعضهم، بهدف الإبقاء على حالة توازن تضمن لها الاستمرار دون أن تنصهر مع المجتمع فتفقد وظيفتها، متحفظة بنوافذ تسمح بقدر كافي من التبادلية الضرورية لتطورها.

هذه القواعد ليست خير أو شر بل إنها تتشكل بطريقة غير واعية إستناداً إلى حاجة النظام للتوازن. وبالتالي فجميع التغيرات تحدث وفق هذا المبدأ، إذا غالباً ما تقاوم الأسرة التغيرات المفاجئة لأنها تهدد استقرارها ,مثلاً: عندما تقرر الفتاة الزواج دون موافقة أهلها يرفضون ويسود التوتر كمحاولة لإبعادها عن قرارها"، لكن تتقبل التغيرات المنبثقة من حاجتها: "عندما تصل لعمر ٢٥ يبدؤون بالإلحاح على زواجها، لأن بقاءها يشكل ضغط على النظام الذي تطور لإبعادها عنه وأصبح من الضروري خروجها ليبقى متوازن."

جميع الأسر مهما كانت درجة إنفتاحها أو انغلاقها تخضع لقواعد بعضها واضحة ومصاغة على شكل تعليمات وتوجيهات تعلن لأفرادها في مناسبات عديدة، مثال: "ماعنا بنات ترافق شباب وتحكي معهن"، "كلنا لازم نحب بعض، وما عنا ولاد بيحكو بهي الطريقة"، "ما بيصير ولد عنا يدرس أقل من هندسة."والجزء الأكبر غير معلنة يستنتجها الأفراد من خلال تفاعلهم مع بعضهم ,مثال: "يطلب من الفتاة القيام بأعمال التنظيف، ولكن لا يطلب ذلك من الصبي" هذا السلوك يتضمن قانون خفي مفاده تقسيم الأدوار حسب الجنس.

يختلف كم وشدة القوانين باختلاف أنماط الأسر، فالمنغلقة التي تزيد من صلابة الحدود مع المجتمع قوانينها كثيرة وصارمة، "حتى الكتب التي تقرأ في المنزل لابد أن تمر على الرقابة الوالدية للحصول على الموافقة."..أما المنفتحة تتسم قوانينها بالمرونة باعتبار أن مساحة الحوار والنقاش فيها أكثر أتساعاً، فتناقش القواعد وتعدلها بديناميكية أعلى.لكن كما ذكرت سابقاً لا يوجد نظام مغلق أو منفتح بالمطلق، في بعض الحالات يتحول المرن إلى جامد والعكس بهدف الحفاظ على القاعدة الأساسية: "التوازن."

أكثر الأفراد تحسساً لحالات التوتر التي تلوح في أفق الأسرة "الأطفال" فيقومون بمهمة صمام الأمان الذي يشير للخطر قبل حدوث الانفجار الأسري، كما أنهم الأقدر على إكتشاف القواعد الخفية التي تنظم تفاصيل حياتنا، فإذا قررنا تعديلها وتطويرها لابد أن نستعين بهم للبدء بالخطوة الأهم في لعبة التغيير وهي معرفة القوانين